٢ - ذكريات من ايطاليا*

بقلم الأستاذ زكى محمد حسن
عضو بعثة الآثار الاسلامية بالمربون بباريس

سيراكيوز - نابلى - بركان فيزوف - بومبي - روما

ولدينا فى مصر مثل هذه الحفريات الأثرية : أهمها ما بدأها المرحوم «على بهجت بك» للكشف عن الفسطاط (العاصمة العربية الأولى للديار المصرية) ؛ ولا تزال دار الآثار العربية تواصل أعمال الحفر باشراف مديرها الحالى المسيو (فييت) ؛ ومنها أيضاً ما تقوم به جماعة (The Egyptian Exploration Fund) لكشف تل العمارنة عاصمة مصر فى عهد الملك (اخناتون).

وأطلال (بومبى) - رغم ما تبعثه فى النفوس من رهبة وما تثيره من ذكريات التاريخ ، واحترام لجلال الموت وعظمة الحياة التى طغى عليها البركان فوضع لنهايتها حداً - أقول رغم كل ذلك فانها تشهد بالمهارة والدقة والمثابرة لمن قام من العلماء بهذه الحفريات ؛ فان السائح يسير فى شوارع كاملة بين صفوف من المنازل ، كثير منها باقية أكثر معالمه ، حتى النقوش على جدران المنازل باق أكثرها يشهد بعظمة الرومان وعلو مدنيتهم ، فتارة يرى السائح سوق المدينة وحماماتها ، وأخرى أقواس النصر المختلفة ، وأحياناً منازل لم تعبث بها يد الزمن فكأنها تصلح للسكنى ؛ وكأن القوم يريدون أن تبقى - مما حدث - ذكرى حية ، فتراهم فى حجرة صغيرة أحاطوا جانبيها بالزجاج وقد تركوا بقايا أسرة دهمها البركان فجمعها فى الموت ، وكأن عظامهـا ترغم السائح أن يرفع الرأس ليرى (فيزوف) ويعجب : هل خمدت ثائرته ، أم لا زال يضمر للإنسانية ما يضمر ؟

انتهت زيارتى من (بومبى) ، وقفلت راجعاً فى القطار ، ولكنى تركته فى محطة عنـد منتصف المسافة إلى (نابولى) ، ومن هذه المحطة يبدأ الترام الذى يصعد على سفوح المرتفعات حتى يصل إلى قمة البركان ، وقد بدا لى ثمن التـذكرة باهظاً للذهاب والإياب وقدره نحو سبعين قرشاً ؛ ولكنى وجدت - بعد ذلك - أن المسافة طويلة والرحلة غاية فى الإبداع ، إذ بدأ الترام يصعد بنا سفوح المرتفعات فى منتصف الساعة الثالثة، وظل يدور بنا حولها مرتفعاً شيئاً فشيئاً ، وعلى جانبينا مسافات ممتدة من الكروم تغطى الجزء الأدنى من سفوح هـذه

---

* بقية ما نشر فى عدد ديسمبر سنة ١٩٣٢ من « المعرفة ».

المرتفعات ، وفى منتصف المسافة تركنا هـذا الترام إلى غيره من نوع آخر (Funicolare) ظل يصعد بنا صعوداً أفقياً مباشراً ، حتى وصلنا نهاية الرحلة فى منتصف الساعة الرابعة؛ وكان المنظر جميلا رائعاً ؛ فتحت أقدامنـا (نابولى) وضواحيها تطل على بحر يغيب فى الأفق ، ويعلوها طبقات اللافا والرماد ، وقد بقيت عارية فى الجزء المباشر للبركان ، وغطتها الكروم فى الجزء الذى يقرب من المساكن والمزارع ؛ وإذا أولينا المدينـة والبحر ظهورنا ، ظهرت أمامنا فوهة البركان الحالية ؛ إذ أننا نعلو فوهته القديمة ، وهى أكثر ارتفاعاً من الفوهة الحالية التى تخرج منها سحب من الدخان تتوج البركان وتزيده عظمة على عظمة ؛ والقوم لا يقفون عند هذا الحد ، بل هناك أدلاء خصوصيون يستطيعون أن يصطحبوا من يريد من السواح فيهبطوا به من الناحية الأخرى إلى موضع أقرب إلى الفوهة الحالية ، كل ذلك لقاء نحو خمسة وعشرين قرشاً ، فدفعنى حب الاستطلاع إلى الإقدام على ذلك؛ ولكنى لم أستطع أن أواصل السير إلى النهاية ، لأن رائحة المقذوفات البركانيـة كادت تخنقنى تماماً ، فطلبت الرجوع ، بينما واصل السير مع دليل آخر شاب ألمانى ، غير أنه لم يستطع إلا أن يرجع بعد خطوات أخرى .

وكنا فى رحلتنا هذه ثمانية : شابين ألمانيين ، وانجليزى ، وسـيدتين انجليزيتين ، وهولندى ، وأنا ؛ وكان الجو رطباً بارداً ، ولا غرابة فى ذلك ، إذ كنا على بعد ١٢٠٠ متر من سطح البحر .

وهكذا انتهت زيارتى لـ (نابولى) وتركتها إلى (روما) ؛ فكان القطار ينهب بنا الأرض بين جبال عالية ، وسهول تكسوها الخضرة والكروم، ونُفق كثيرة يجتازها بين حين وآخر ليعبر هذه الجبـال ؛ وذكرنى منظر الريف الايطالى بقرانا فى مصر وما عليه فلاحونا من بؤس وشقاء ، ، ولم يسعنى حين ذلك إلا أن أذكر ما عليه القرى فى انجلترا وفرنسا وسويسرا من جمال يحبب إلى المرء ترك المدن وضوضائها .

وأخيراً وصلنا (روما Caput Mundi) أو (عاصمة الدنيا) ـ كما كان يسميها الرومان ـ وهى وإن تكن فقدت مركزها هذا من وجوه عدة ، إلا أنها لا تزال ـ بحق ـ سيدة عواصم العالم بآثارها القديمة ، بل إنها تجمع عاملين : عامل التليان ، وعامل المسيحية ، غير أننا إذا استثنينا غنـاها بكنوزها الأثرية ، فان (روما) لا تساوى عواصم الدول الكبرى جمالا وتنسيقاً ، ولذا منذ أن دخلتها جيوش الملك ـ بعد تمام الوحدة الايطالية ـ سنة ١٨٧٠ كان هم أولى الأمر فيهـا القيام بالاصلاحات اللازمة لإبلاغها تلك المرتبة ، ولكن قامت دون ذلك صعوبات ، أهمها : قلة المال ، وازدحام المدينة بالآثار القديمة والأطلال البالية

ازدحاماً يتعارض مع المدنية الحديثة وتنظيم العواصم الكبرى ، وخاصة إذا لم يجرؤ القوم على تضحية بعض هذه الأطلال فى سبيل تنظيم المدينة وتنسيقها .

وقد لجأ رجال (روما) إلى البارون (هوسمان Haussman) ـ الذي كان محافظاً لمقاطعة (السين) بفرنسا ، واشتهر بأعماله العظيمة فى سبيل تنظيم (باريس) وتجميلها ـ فى أواخر القرن الماضى ، فأفتى بأن يتركوا (روما) القديمة ، وأن يبنوا جانبها مدينة جديدة ، فلم يلق أذناً صاغية ، ولكن القرائن تدل على أنهم يعودون الآن إلى رأيه شيئاً فشيئاً .

أما (موسولينى) فقد اهتم بذلك ، وكون ـ منذ سنتين ـ لجنة فحصت المسألة ملياً ، ورأت القيام بإصلاحات عدة ، مع المحافظة ـ قدر المستطاع ـ على الآثار القديمة ، ووافق الرئيس على ذلك ، وبدأت الاصلاحات حول (الكابيتول) ، حيث هدموا بعض الطرق والكنائس والبيوت القديمة ، فنادى كثير من الناس ـ وأكثرهم من الأجانب ـ بالويل والثبور ، مدعين أن ذلك سوف يقضى على (روما) ولونها المحلى وخواصها الفنية ؛ فرد عليهم من منصة مجلس الشيوخ مدير سابق للفنون الجميلة ، وندد بأولئك الذين يريدون أن يتخذوا الفن والجمال حجة لإبقاء الأبنية الحقيرة ، والجدران القذرة ، والأحواش الضيقة ، وغير ذلك ؛ وتداخل (موسولينى) نفسه فى المناقشة ، فقال : « إن الآثار العظيمة مكفول احترامها ، وإنما المهم أن يفرق بينها وبين الخرائب والأطلال مما يدعى البعض أنه لازم ليبقى لـ (روما) لونها المحلى ... » ، وقال فى ختام خطبته : « كل هذه الأطلال والخرائب القذرة سندفع بها إلى صاحب الجلالة المعول : فيقوض أركانها باسم جمال العاصمة وشئونها الصحية » .

ولا ريب أن هذه الخطة المثلى ستوسع المجال لظهور الآثار الباقية ، وستزيل عن (روما) تلك المسحة الشرقية التى يشعر بها السائح فى كثير من أحيائها .

وأكبر ما أعجبنى من آثار (روما) ميدان القديس بطرس ، فهو عظيم بيضاوى الشكل ، تقوم فى وسطه مسلة مصرية كبيرة ، وتطل عليه كنيسة القديس بطرس ببهوها الفخم ، وإلى يمينه قصر (الفاتيكان) مقر البابوات ، وداخل هذه الكنيسة غاية فى الابداع ، وسقفها مدهش فى دقة الصنع والنقش ، بناها الامبراطور قسطنطين ، وهى الآن أفخم معابد العالم .

وفى الفاتيكان متحف يحوى أعظم التحف الأثرية ، وأكثر ما أبدعه رجال الفن منذ العصور القديمة ، وبينها هدايا إلى البابوات من مشارق الأرض ومغاربها ، وقد لفت نظرى منها إناء كبير من المرمر كتب تحته بالإيطالية : (Dono de Mehemet Ali viceré dell'Egitto a Pis I X) ، ومعناها : هدية من محمد على والى مصر إلى بيوس التاسع ؛ ذلك عدا نحو ثلاثين من شواهد القبور الاسلامية عليها نقوش بالكوفية ، وبه قسم للآثار المصرية القديمة ، غنى بكنوزه عظيم فى تنسيقه .

و (روما) تفوق العالم كله بكنائسها الجميلة ، وفى وسطها تقوم أطلال الأبنية الرومانية القديمة، (كالكولسيوم) و(الفورو رومانو) مركز الحياة الرومانية ومكان الاجتماعات والثورات والحفلات ؛ ومن مميزاتها أيضاً : أقواس النصر العديدة التى كانت تقام لأبطال الرومان بعد انتصاراتهم الباهرة ، و (الكابيتول) الذى كان يجتمع فيه مجلس (روما) البلدى ، وقد بنى فى القرن الرابع عشر ، وسلالمه من عمل (ميشيلانجلو) ؛ وهناك أيضاً حدائق (بورغيزى) ومتحفها الجميل ، وبحيرتها العظيمة ؛ وفى ميدان العامة (Piazza del Popolo) مسلة مصرية من الجرانيت ارتفاعها أربعة وعشرون متراً ، نقلها (أوغسطوس) إلى (روما) بعد معركة (أزيو) .

وهناك أيضاً (البانتيون) ، وقصر (الكوردينال) الذى بنى فى القرن السادس عشر ليكون مقراً للباباوات ، ثم ميدان العمود ـ نسبة إلى العمود الذى أقيم فيه ذكرى لـ (ماركوس أوريليوس) بعد انتصاره على الجرمان ـ ، وقصر القديس (أنجلو) الذى بناه الامبراطور (أدريان) ليكون مدفناً له ولخلفائه .

وفى ميدان (فينيسيا) قصر الرئاسة ، حيث يطل (موسولينى) من شرفة غرفته على جيوش (الفاشيست) ، وفيه أيضاً هيكل النصر وقبر الجندى المجهول .

هذا و (روما) تختلف كثيراً عن عواصم أوربا الأخرى ، ولعل أهم ما يلفت النظر خلوها من ترام فى باطن الأرض كما هى الحال فى : لندن ، وباريس ، وبرلين مثلا ؛ ومن ثم لاحظت ازدحام (الترام) و (الأوتوبيس) دائماً ، فضلا عن ازدحام الشوارع الرئيسية .

ومن الظواهر التى شاهدتها فى إيطاليا كلها : قلة النساء فى الطرقات ؛ ففى (روما) نفسها نسبة النساء إلى مجموع المارة أقل بكثير منه فى (لندن) و (باريس) ، ولعل ذلك راجع إلى أن المرأة الايطالية لا تزال أكثر تحفظاً من زميلاتها : الانجليزية ، أو الفرنسية، أو الألمانية؛ ومن ثم كانت أكثرهن لزوماً لبيتها ، وأقلهن اختلاطاً بالحياة العامة .

مرت الأيام سراعاً ، ولم يكن كل ما أراه ليخفف من حنينى إلى باريس ، فسرنى أن حان وقت الرحيل إليها ، وذكرت قول شوقى من قصيدة له فيها :

زعموك دار خلاعة ومجانة ودعارة ! يا إفك ما زعموك
إن كنت للشهوات رياً ، فالملا شهواتهن مرويات فيك
والعلم فى شرق البلاد وغربها ما حج طالبه سوى ناديك
العصر أنت جماله وجلاله والركن من بنيانه المسموك

[باريس]

زكى محمد حسن
عضو بعثة وزارة المعارف